الدكتور شفيق

وضع الدكتور شفيق رأسه بين يديه ولم يستطع أن يكبت دموعه وعقلت الدهشة لسان أخته الجالسة وراء مكتبها تراجع حسابات المدرسة وراحت تتأمله والرثاء له يفطر قلبها.. وأخيرا حاولت أن تهون الأمر عليه بقولها:

- أتبكي لتلك الساقطة؟..

وأجاب وهو يمسح نظارتيه الغبشتين دون أن يرفع إليها ناظريه:

- أبكي لنفسي وللصغيرتين..

وود لو يقول الشيء الذي يغلي به قلبه منذ أعوام:

- أنت سبب تعاستي!..

ولكنه أشفق على تلك الإنسانة التي أحبته حب العبادة، فأساءت إلى سـعادته كما لم يسيء إليها أحد..

لم تستطع الحفلة ولا الوجوه الحسان التي شاهدها في الحفلة أن تهـون عليـه مأساته.. وحين انصرف إلى غرفته كان يحس بالكآبة تخنق أنفاسه وخرج إلى حيث كانت طفلتاه الحبيبتان تنامان جنبا إلى جنب بهدوء ووداعة الحمام بعد أن تكونا قد أقامتا الدنيا وأقعدتاها شيطنة ولعبا في النهار.. كان الهدوء مخيما على المكان وكل شيء منظم في مكانه والسريران الصغيران مرتبـان وقـد شُـد عليهما المفرش الكتاني المزهر..

وأحس "شفيق" بالضياع.. لقد كانت مشاعر الأبوة عميقة في نفسه الحافلة بكل المشاعر السامية النبيلة..

وغسل وجهه وحاول أن يطالع فينسى همومه ولكنها كانت تلح عليه بما لا يدع له مجالا للتفكير بغيرها وتقلص وجهه الوديع بتعبير باك وهتف لنفسه بيأس:

- أنا الذي دفعتها لذلك الأمر المشين.. لم أستطع أن أهبها بـسخاء الـشيء الوحيد الذي تصبو إليه..

ثم راح يسائل نفسه والأسى يلوي قلبه :

- لماذا تزوجتها؟.. كيف لم أدرك منذ البداية أن كلينا لا يملك ما يـسعد بـه رفيقه؟..

لقد اختارتها له أخته.. أخته التي شغلت كل أدوار المرأة في حياته ما عـدا دور الزوجة.. كانت تكبره ببضعة أعوام وأحبته بكـل عواطفهـا المكبوتـة الجياشة فكانت له الأم والصديقة وأمينة السر والناصحة والمشجعة والخادمة.. بالرغم أنه لم يكن يوما ليشعر بحاجة ماسة للزواج في ذلك الجو المريح الذي توفره له أخته، إلا أن الارتباك والخجل اللذين كانا ينتابانه حين يقابل امـرأة، وطبيعة عمله الذي يحتاج إلى خبرة بشؤون النساء أقنعاه أخيـرا أن عليـه أن يخوض تجربة الزواج..

واختارت له أخته الفتاة التي ظنت أنها تنسجم "معها" تمام الانسجام.. وكانـت في اختيارها حريصة أن تبقى على عرشها في نفس ذلك الأخ الذي تحبه حب العبادة..

كانت العروس واسمها "فاتن" جميلة كحسناوات "الغجر" وفيها كثير من طبيعة الغجر العنيفة النارية الدماء..

كان لها عينان سوداوان فاحمتان واسعتان تتلألآن كنجمتين ألقتـين.. وشـعر حالك متماوج ينسدل في حلقات على كتفيها وفم مستدير..

وكان يحلو لها أن تضع طبقة كثيفة من الكريم والبودرة فوق وجههـا لتخفـي سمرتها الشاحبة وترفع حمالة نهديها إلى أقصى مدى ممكن حتى ليخيل للناظر أنهما سيبلغان كتفيها.. وتعتني كثيرا في اختيار أقراطها التي كانـت تنـسجم بشكل غريب مع وجهها.. وتفضل من الثياب الألوان الصارخة المثيرة..

ولم يبال شفيق في ان يدقق في الاختيار، فما كان يعنيه حينذاك سوى تجربـة الزواج والأطفال والإستقرار.. ولم يكن موقفه من تلك القضية إلا كموقفه حين تختار له أخته ربطات عنقه، ولون قطعة الجوخ التي يفصل منها طقومه..

ولكن الأمور لم تسر بنجاح هذه المرة كما رسم لها.. فقد بدأت المرأة تغار من سيطرة الأخت وتضيق بانتقاداتها وتدخلها بكل الشؤون..

وبدأت المشاجرات والمشاحنات.. وانتهت إلى شجار قوض الحياة الزوجية من أساسها فلقد اتهمت الأخت زوجة أخيها بعلاقة مشينة مع النساء.. ولـم تنكـر المرأة!..

كانت تتحدى والملل قد أفقدها حتى القدرة على النفـاق والإنكـار وصـرخت الأخت وقد فقدت صوابها:

- ألا تخجلين؟.. لقد هبطت بقدسية هذا المنزل إلى الحضيض.. مرغت شرفنا بالوحل.. أنت تكونين زوجة لأخي النبيل!..

وهتفت المرأة المتمردة بلهجة هستيرية وقد نفذ كل ما لديها من صبر:

- ليتني تزوجت "دركيا" ممتلئ الرجولة لكان أفضل لي من أخيك النبيل جدا.. ليطلقني.. أليس هذا ما تريدين؟.. ليطلقني ويفرح قلبك.. ألـيس هـذا مـا تسعين له؟..

وتساءل شفيق وروحه يهصرها الألم:

- أكنت منصفا في هجري لها؟.. والصغيرتان الحبيبتان!..

وشعر أنه بالرغم من كل ثقافته وذكائه ومركزه الرفيع قد خسر سـعادته بـل نفسه.. لقد جرحت تلك المرأة الجاهلة كبرياءه بما لا يندمل.. ومع ذلك كـان يتمنى لو بقي مخدوعا وسلمت حياة الأسرة من الإنهيار وهمس لنفسه بأسى:

- إنني سيء الحظ.. سيء الحظ جدا..

وفي اليوم التالي يأتي لزيارته "العقيد عزيز" في الصباح الباكر ويحدثـه عـن قصة المؤامرة على حياته، ويسترشده فيما يفعل..

* * *